

## أولاً: عبد الرحمان ابن خلدون (1233-1406م)

في حقيقة الأمر إن هذا المفكر العربي استطاع أن يقدم إسهامات مهمة في تشكيل وبلورة الفكر الإنساني، باعتباره سياسي فقد استفاد كثيرا من علوم عصره ومن ملاحظاته الميدانية التي جمعها خلال تنقلاته المختلفة، وقد ساهم ابن خلدون في الكثير من الجوانب الاجتماعية، ودفع الكثير لاعتباره مؤسس علم الاجتماع، خاصة أن أعلن بصورة واضحة على أنه يجب أن يكون لأي علم جديد موضوع محدد خاص به، وقد حدد هذا الموضوع الذي قدمه **بالعمران البشري**. وهذا ما ظهر بوضوح في مقدمته الشهيرة والتي تعرف (بمقدمة ابن خلدون) التي توضح من خلاله تصوراته الاجتماعية والتي جاءت نتيجة استخدامه أساليب وطرق ومناهج البحث الاجتماعي والإيديولوجي والتاريخي المميز، وذلك من خلال تقصيه للواقع وتحليله، وجمع المادة العلمية، والتي تعكس مدى اهتمام هذا المفكر بدراسة الواقع والمجتمع، وتناول قضايا بصورة تحليلية مميزة.

أما في مفهوم ابن خلدون للعمران فهو علم يبحث ويوضح أحوال العمران والتمدن، وما تخضع له ظواهر الاجتماع الإنساني من قوانين، وهذا العلم مستقل بذاته وله موضوعه الخاص وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، الذي يدرس ما يطلق عليه "ابن خلدون" **الواقعات الاجتماعية (واقعات العمران البشري)**، وهو ما يعرف اليوم بالظواهر الاجتماعية.

✓ **الظاهرة الاجتماعية عند "ابن خلدون":**

يرى "ابن خلدون" أن الظواهر الاجتماعية أو كما يطلق عليها الواقعات الاجتماعية تخضع إلى قوانين مماثلة للقوانين التي تنظم حركة الظواهر الطبيعية وتفرض سيطرتها على الناس، بحيث لا يمكن التحكم بها من قبل الأفراد، حيث حث "ابن خلدون" على ضرورة دراسة الظاهرة الاجتماعية في حالة استقرارها وفي حالة تغيرها وتطورها.

بمعنى أن "ابن خلدون" استخلص أن الحوادث والظواهر الاجتماعية لا تسير حسب المصادفات أو وفق إرادة الأفراد، وإنما لها قوانين ثابتة لا تقل في ثباتها عن قوانين الظواهر الأخرى (ويقصد هنا الظواهر في العالم العربي)، حيث دعا هنا إلى إتباع طريقة دقيقة لتحقيق الأحداث.

● **منهج "ابن خلدون" (الطريقة التي تدرس بها الواقعات الاجتماعية):**

حيث دعا "ابن خلدون" إلى الملاحظة (المشاهدة) والمقارنة والتجريب، وفهم الوقائع في إطارها الزمني الخاص وكذا التحليل العقلي والمقارنة التي تمكن من الكشف عن أوجه الاختلاف والتشبيه ثم الوصول إلى القوانين والمبادئ التي تحكم الظواهر الاجتماعية.

✓ **ضرورة الاجتماع الإنساني:**

توصل "ابن خلدون" في دراسته لل عمران البشري إلى أن المجتمع أمر ضروري وطبيعي، بمعنى أن الإنسان مدني بطبعه، ولا يستطيع العيش منفردا أو بمعزل عن الآخرين (المجتمع). فالأفراد حسبه في حاجة دائمة إلى العون المتبادل بغية تحقيق وإشباع حاجاتهم الدفاعية والاقتصادية.

فقد أولى اهتماما كبيرا بتحليل الضرورة الاجتماعية والكشف عن الدعائم التي تقوم عليها، فعدم كفاية الفرد لنفسه تدفعه إلى التعاون والاشترك في حياة الجماعة ومن ثم ينشأ التضامن الذي يعد أقوى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع.

### ✓ مفهوم العصبية والتضامن الاجتماعي:

أخذ العصبية والتضامن الاجتماعي حيزا هاما في تفكير ابن خلدون؛ لما يوليه من أهمية بالغة لهذين المفهومين على اعتبار أن العصبية هو محور نظرية ابن خلدون في قيام الدول وسقوطها (وستتطرق إلى ذلك لاحقا)، والعصبية التي يقصدها ليست تلك العصبية الجاهلية العمياء، التي تقوم على الباطل وأحواله، والعصبية حسبه هي رابطة دم أو قرابة، أو هي رابطة نفسية واجتماعية تربط أُل القبيلة ببعضهم البعض الذين تجمعهم رابطة -النسب- أو رابطة الحلف والولاء، إضافة إلى شرط الملازمة بينهم (القرب الجغرافي والعيش المشترك) ليتم التفاعل الاجتماعي بينهم، فالعصبية تصبح في كثير من الأحيان لا معنى لها إذا لم يكن هناك القرب الجغرافي والعيش المشترك.

وحدد "ابن خلدون" حياة الدولة بثلاث أطوار رئيسية هي:

● **الطور الأول:** وهو طور الاستيلاء على السلطة، حيث تكون فيها العصبية على درجة عالية من القوة، بحيث أن الحاكم هنا لا يقطع صلته بالقبيلة ويعمل على تحقيق مطالبهم وإشباع حاجاتهم، وتظل هنا مظاهر البداوة قائمة، فلا يكاد يلاحظ فرق كبير بينهما وبين المرحلة التي سبقتها.

● **الطور الثاني:** وهو طور توطيد السلطة: في هذه المرحلة نلاحظ نوع من الاهتزاز في العصبية، بحيث يدخل الحاكم في تناقض وصراع مع قبيلته من خلال خدمة صالحة الخاصة وحاشيته، وعدم اشتراك أهل عصبيته واحتكاره للسلطة، فتبدأ هنا النزاعات والانشقاقات، وتبدأ العلاقة بينه وبين أفراد قبيلته في التصدع والتلاشي شيئا فشيئا، كما يحدث في هذا الطور توسع في الدولة، وزيادة فرض الضرائب... الخ.

● **الطور الثالث:** هي مرحلة الدورة أو القمة: نلاحظ انشقاق واضح بين الحاكم والعصبيات القبلية (الذين هم من أوصلوه في حقيقة الأمر إلى الحكم)، فيسود الحكم التسلطي واستبداد الحاكم، خاصة بعدما تتطور الصناعة والحرف وازدياد توصيل الضرائب لصالح الملك (أو الحاكم) وحاشيته، حيث يتم تعويض العصبية بالمال والثروة من خلال لجوء الملك إلى الاستعانة بأشخاص أجنبي غير أفراد قبيلته، ففي هذه المرحلة تصل معالم التحضر إلى ذروتها ويظهر ما يعرف بالرفاهية والترف.

● **الطور الرابع (الزوال والانهيال):** في هذه الرحلة يصل فيها التناقض والصراع بين العصبية والملك إلى قمته، بسبب انهيار الملك الذي كان ينفق على مساعدي الملك (الحاكم) والذين هم ليسوا من عصبيته، وهذا ما يؤدي إلى زيادة دفع الضرائب وبالتالي خنق

التجارة والصناعة والزراعة، وهذا ما يؤدي بالحاكم إلى فقدان قاعدته نتيجة لتخليه عن العصبية القبلية، وبالمقابل تستيقظ عصبية قبلية أخرى وتستولي على الحكم بفعل القيام بثورة أخرى، وهكذا ذوا ليك.

ثانيا: أوجست كونت (1798-1857م)

هو من سمي العلم الجديد بعلم الاجتماع، فمن اللغة اللاتينية استمد مفردة Socio التي تعني المجتمع، ومن اللغة الإغريقية مفردة Logos أي العلم. فكان علم الاجتماع: علم المجتمع أو علم دراسة المجتمع. أوجست كونت يعد أيضا من أوائل من قال بإمكانية والحاجة الخلق علم اجتماعي جديد (سبقه إلى ذلك عبد الرحمان ابن خلدون 1332-1406).

كونت هو مؤسس "الفلسفة الوضعية". حسب رأيه، كل اكتساب للمعرفة يجب أن يتحقق انطلاقا من ملاحظة للواقع ليتم فيما بعد صياغة مقولات نظرية. ملاحظة الواقع يجب أن تسبق كل اقتراح نظري. ليعارض بذلك أولئك الذين يضعون مقدمات نظرية دون مطابقتها للواقع. حسب كونت علم الاجتماع عليه التحلي بهذا الطابع الوضعي والعلمي. عليه أن يكون قبل كل شيء علم ملاحظة. عليه أن يطبق نفس المنهجيات العلمية الصارمة التي تطبقها العلوم الطبيعية: الفيزياء أو الكيمياء.

كونت أو كل لنفسه مهمة إنهاء صياغة العلوم الوضعية (تلك التي تعتمد على الملاحظة والتجربة) وذلك عبر تأسيس آخر وأعتقد علم وضعي، وهو ذلك الذي يختص بدراسة الظواهر الاجتماعية، فكان ما أسماه علم الاجتماع، وهي التسمية التي فضلها على تسمية أخرى: الفيزياء الاجتماعية.

إذن بالنسبة لكونت علم الاجتماع يمثل العلم الذي يختم تطور ومسار العلوم الوضعية. هذا العلم الجديد برأيه ينقسم إلى حقلين كبيرين للدراسة:

-الستاتيكا الاجتماعية (الثبات الاجتماعي): دراسة محددات وعوامل النظام والتماسك الاجتماعي.

-الديناميكا الاجتماعية (التغير الاجتماعي): دراسة تطور الإنسانية والقوانين التي تسيّر نمو المجتمع الإنساني وتحكم تغيره.

لم يمكن لكونت من مساهمة في مضمون الستاتيكا الاجتماعية، لكنه في المقابل انصب على دراسة الديناميكا الاجتماعية بحديثه عن قانون المراحل الثلاث التي مر بها التفكير الإنساني:

1. المرحلة اللاهوتية: أين تم اعتبار الظواهر منتجات لأفعال مباشرة فوق الطبيعة، وأن لا دخل ولا سيطرة للإنسان عليها.

2. المرحلة الميافيزيقية: القوى فوق الطبيعة عوضت بأفكار وتصورات مجردة، مثل: الحرية، المساواة، العقل، الفرد... التي جعلت البشر ينظرون إلى ظواهر المجتمع بشكلها الطبيعي.

3. المرحلة الوضعية: يميزها البحث عن القوانين التي تحكم الظواهر باستعمال التفكير العقلي والتجريب. هذه المرحلة ميزتها الاكتشافات والاختراعات العلمية (نيوتن، كوبرنيك، غاليلي...).

حسب كونت، المرحلة الوضعية هي مرحلة حتمية، نهائية ودائمة، هذه النظرة التطورية للفكر الإنساني ستعرف فيما بعد انتقادات كثيرة. خاصة وأنها تنطبق فقط على وضع التفكير الإنساني في أوروبا وليس في العالم كله.

ثالثا: أليكسيس دو تو كفيل (1805-1859م)

على الرغم من أن تو كفيل عاصر حياة كونت، إلا أن أفكاره ودراساته لم تحض بنفس شهرة أفكار ودراسات الأخير. السبب، دور كايما اعتمد على أعمال كونت وليس على أعمال تو كفيل.

### 1- منظر الديمقراطية:

أمريكا... نموذج المجتمع الديمقراطي:

يعتبر تو كفيل قبل كل شيء مفكر الديمقراطية. في كتابه المعنون بـ "حول الديمقراطية في أمريكا"، يتساءل حول الظروف الخفية لاستمرار ونجاح الديمقراطية الليبرالية وفق ما هي عليه في الولايات المتحدة الأمريكية؟ إن المجتمع الأمريكي يمثل بالنسبة إليه النموذج الناجح للديمقراطية، بسبب الأسباب التاريخية (مساحة جغرافية واسعة و"خالية" من كل تنظيم اقتصادي وسياسي)، أسباب ثقافية (النزعة إلى الحرية، النزعة إلى التكاتف والتعاون، روح الجماعة، تجانس في الآراء، حرية صحافة) وأسباب مؤسسية (لا مركزية إدارية للسلطة، النظام الفيدرالي).

### 2- الديمقراطية والمساواة:

تو كفيل يرى الديمقراطية والمساواة على ارتباط قوي، إذ لا ديمقراطية بدون مساواة. ففي النظام الديمقراطي الناجح حيث لا يتم انتقال المكنات والأدوار الاجتماعية وراثيا (كل المكنات والأدوار الاجتماعية متاحة للجميع)، المساواة الاجتماعية هي القاعدة. بمعنى آخر، وفي غياب حدود مانعة بين الطبقات الاجتماعية الحراك الاجتماعي ممكن.

الحراك الاجتماعي: انتقال الفرد أو الجماعة من طبقة أو من مستوى اجتماعي اقتصادي معينين إلى طبقة أو مستوى اجتماعي اقتصادي آخرين، بحيث يرتبط بهذا الانتقال تغيير في مستوى المكنة الدور والمدخل، وقد يكون هذا الانتقال إلى أعلى أو إلى أسفل. في المحصلة، هذه "السيولة" الاجتماعية تكسر تساوي ظروف العيش، أي عملية تسوية لمعدلات الدخل وطرق العيش.

### 3- أخطار الديمقراطية:

تو كفيل بوصفه ملاحظ ناقد للأنظمة السياسية يرى بأن الديمقراطية على الرغم من إيجابياتها ليست نظاما كاملا. لذل فهو يحذر من أربع أخطار تتضمنها:

✓ الفردانية: على اعتبار المساواة تجعل الناس متساوين أمام بعضهم البعض دون رباط مشترك يجمعهم، فإن هذا من شأنه أن يشجع البعض منهم على تبني سلوكيات أنانية (فردانية)، تعم الجميع فيما بعد، ما يعتبر خطرا على الجسم الاجتماعي وعلى تماسكه.

✓ الفوضى: لما لا توضع حدود لحرية الناس، يمكن أن يؤدي ممارستها لها إلى الفوضى والتعدي على حريات الآخرين.

✓ الاستبداد الديمقراطي: في المجتمعات الديمقراطية، الشعب يختار ممثلين له مهمتهم ممارسة السلطة السياسية. هذا المبدأ في الديمقراطية التمثيلية يمكن أن يحول الناس بعد مدة معينة إلى مواطنين غير فاعلين (الامتناع عن الانتخاب) وجعلهم في موقف يشبه موقف العبيد.

✓ استبداد الأغلبية: لما يكون مبدأ الأغلبية هو من يحدد قواعد عمل الديمقراطيات، فإن "الرأي العام" هو من يقود العالم، هكذا ونتيجة العودة دائما إلى الرأي العام نكون قد فقدنا جزءا من هويتنا الشخصية لصالح سلوكات ومواقف مطابقة لسلوكات ومواقف الأغلبية. بإمكان الأغلبية على هذا النحو أن تسحق الأقلية وتقلل من مساحة الحرية الشخصية.